حزب الخوارج

كان أكثر الأحزاب السياسية في العصر الأموي شعراً وشعراء. وقد عرف كثير من الشعراء الذين آمنوا بمبادئه، ومن أهمهم: عمران بن حطان، وقطري بن الفجاءة، والطرماح بن حكيم، وعمرو بن الحصين، وعيسى بن فاتك، ومرداس بن أدية.

ويدور شعرهم كله حول الدعوة إلى الجهاد ضد الجماعة الإسلامية التي انحرفت– في رأيهم– عن الدين وتسيطر على دعوتهم روح الفدائية والتضحية، والعصبية الحادة لعقيدتهم السياسية، والحماسة الجارفة للموت في سبيلها ورفض الحياة من أجلها، والإيمان الذي لا حدّ له بمبادئهم الثورية التي عاشوا لها، فقد آمنوا جميعاً بأنهم يدافعون عن حقوق الله والإسلام، وأنهم باعوا أنفسهم للدفاع عن عقيدتهم، ويخلو شعرهم من تلك الأنغام الحزينة الباكية التي يفيض بها شعر الشيعة، وتحل محلها أنغام ثورية بالغة العنف والشدة تسيطر عليها استهانة بالموت، واستبشار مطمئن إلى أجر الشهادة الذي وعد الله به المجاهدين في سبيله.

وكان شعر الخوارج شعراً جديداً في كل شيء، فهو جديد في موضوعه لأنه شعر مذهب حديث أوجده الإسلام، واستمد عناصره السياسية والدينية من القرآن والحديث، وهو جديد في غايته، لأن شعراء الخوارج كانوا يقولونه بباعث من الجهاد في سبيل الحكم الصالح ودفع الظلم عن الناس، وهو جديد في أساليبه التي تنحو في سلاستها ورقتها وجزالتها منحى جديداً، وتحاكي أسلوب القرآن الكريم.

بهذه الجدة المتعددة الجوانب انفصل شعر الخوارج عن سابقه ومعاصره، وصار لوناً مستقلاً بذاته لا يجري على التقاليد المألوفة في القصيدة الجاهلية أو الأموية من مقدمة طللية أو غزلية، وتعدد في الأغراض، وليس معنى هذا أنه قد خلا تماماً من المقدمات، ففيه ما اشتمل عليها، ولكنه مقدمات استحالت إلى صور تلائم المذهب الخارجي في نزعته وأفكاره، فالنسيب في مطلع القصيدة ينتهي عندهم إلى الفخر بالجهاد، كقول قطري بن الفجاءة:

لعمرُكَ إنّي في الحياةِ لَزاهدٌ ... وفي العيشِ ما لَمْ أَلْقَ أَمَّ حكيمِ

من الخَفِراتِ البيضِ لم يُرَ مثلُها ... شفاءً لذي بثٍّ ولا لسقيمِ

ولــو شـــهِدَتْني يــومَ دولابَ أبصَـــرَتْ طعــانَ فتــى فــي الحــربِ غيــرِ ذمـيمَ

وكقول عمران بن حطان يخاطب زوجه جمرة الجميلة التي كان وجودها يزين الحياة في ناظريه:

إنْ كُنْـــتِ كارهـــةً للمـــوتِ فـــارتَحِلي ثـــمَّ اطلُبـــي أهـــلَ أرضٍ لا يموتونـــا
فلســـتِ واجـــدةً أرضـــاً بهـــا بَشَـــرٌ إلّا يروحـــــونَ أفواجـــــاً ويَغـــــدونا
يـــا جمـــرُ قـــد مـــاتَ مـــرداسٌ وإخوتُـــهُ وقبـــــلَ مـــــوتِهِمُ مـــــاتَ النبيّونـــــا

إن هذا الغزل لا ينطبق على ما عرفناه من غزل في شعر العرب، وكأنما طغت العقيدة على نفوس الخوارج وقلوبهم، فلم يعد فيها مكان للمرأة يتغزلون بمحاسنها ومفاتنها، ولكن تثير في نفوسهم إحساساً بالتقابل بين الحياة الفانية وما أعدّه الله بعدها من خلود في الجنان أو السعير، فينطلقون إلى الجهاد بأنفسهم سعياً للشهادة والخلود في الجنة.

وكما تطورت صورة الغزل في ظل عقيدة الخوارج، تطورت كذلك صورة الرثاء، فلم يعد الرثاء عندهم كما كان عند غيرهم تطيف به خيالات الحزن وتسكب في أحنائه الدموع، وإنما هو رثاء من لون جديد تطيف به خيالات الاطمئنان إلى إرادة الله، والتسليم بقضائه، وتمثل الشهداء في تقواهم، وتمني حظهم في الشهادة والقرب من الله، وذلك لأن الاستشهاد كان غاية تلتقي عندها أحلام الخوارج كلهم، وتكاد رغبتهم في الموت في سبيل عقيدتهم تغلب رغبتهم في تحقيق أهدافهم التي خرجوا انتصاراً لها، حتى ليصبح رفض الحياة وطلب الموت لديهم هدفاً يطلب لذاته لا يعتوره حزن أو أسف، ولا يسلم إلى يأس. إن قارئ هذا الشعر يشعر أن الموت عندهم – على هذه الصورة – لون من ألوان الأمل وضرب من الأماني، ولهم شعر كثير حول فكرة تعجل الموت واستطالة الحياة، كقول قطري بن الفجاءة:

إلـــى كَـــمْ تُعـــاريني الســـيوفُ ولا أَرى معاراتَهـــــا تـــــدعو إلـــــيَّ حِماميـــــا
أُقـــــارِعُ عـــــن دارِ الخلـــــودِ ولا أَرى بقـــاءً علـــى حـــالٍ لِمَـــنْ لـــيسَ باقِيـــا
ولو قرّبَ الموتَ القِراعُ لقد أَنَى لمـــوتيَ أنْ يَـــدْنو لطـــولِ قِراعِيـــا

وهكذا تبدو صورة الحياة في شعرهم مملة، حتى ليشعر الواحد منهم بالسآمة عندما يجد أن رأسه ما يزال فوق كتفيه لم يحمل ثقله عنه فتى من أعدائه، كما في قول أم حكيم إحدى مقاتلاتهم:

أحمـــلُ رأســـاً قـــدْ ســـئِمْتُ حملَـــهُ
وقـــدْ ســـئِمْتُ دَهْنَـــهُ وغَسْـــلَهُ
ألا فَتـــى يحمِـــلُ عنّـــي ثِقْلَـــهُ

هكذا إذاً تستحيل الحياة لديهم ذميمة دنيئة ولا خير فيها، ويلح هؤلاء الشعراء على فكرة ازدراء الحياة والزهد فيها، وطلب الشهادة التي تنقل الإنسان من دار الفناء والشقاء إلى دار الخلود والنعيم، على نحو ما نرى في رثاء عمران لأبي بلال مرداس أحد زعماء الخوارج:

لقـــدْ زادَ الحيـــاةَ إلـــيَّ بُغضـــاً وحُبَّـــاً فـــي الخـــروجِ أبـــو بِـــلالِ
أُحـــاذِرُ أنْ أمـــوتَ علـــى فِراشـــي وأرجـــو المـــوتَ تحـــتَ ذُرى العَـــوالي
ولـــو أنّـــي عَلِمْـــتُ بـــأنَّ حَتْفـــي كحَتْـــفِ أبـــي بِـــلالٍ لـــمْ أُبـــالِ
فَمَـــنْ يَـــكُ همُّـــهُ الـــدنيا فـــإنّي لهـــا واللهِ ربِّ البيـــتِ قـــالِ

ولا ريب في أن هذه الصورة الجديدة في الرثاء تخالف ما ألفناه عند غيرهم من الشعراء، فهم لا يبكون فيمن يرثونهم المروءة التقليدية، وإنما يبكون فيهم المثل الأعلى للخارجي كما يرونه من التقوى والصلاح والزهد في الدنيا ومتاعها، مصورين إقبالهم على الموت في بسالة وشجاعة منقطعة النظير.